متطاولة حتى انتهت إلينا فاستعملناها لا نكاد ندرى على اليقين ماذا يقصد بها لأننا لاندرس على الإجمال كيف كانت معالم حياتها .

إن هناك أمرين خطيرين فى تراث أمين معلم الأدب : التساؤل عن حياة اللفظ ، كيف يمكن أن يفيد فى شرح نص معين . ولكن أمامنا وظيفة ثانية لاتنفصل تماما هى كيف تصور كتاب المعاجم أنفسهم مدلولات الألفاظ .

الشائع بين الناس أن كتاب المعاجم سمعوا مدلولات الألفاظ فى كثير من الظروف من أهل اللغة وسكان البادية . وقد أثار الأستاذ أمين أعمق ما عهدت من القلق أمام هذه الناحية . . وكأنه كان يتساءل أكان مدلول اللفظ سماعا يسمع أم استنتاجا يؤول ؟ . . وتبدو أهمية هذه الحيرة حينما يجعل الأستاذ أمين القارىء المؤهل فى العصر الحديث مسئولا عما أخفق القدماء فى إدراكه من حياة الألفاظ . . هذه نتيجة خطيرة . . ولا يكاد المرء ينسى فى لحظة من اللحظات كيف استطاع أمين أن يوحى بها دون جدل أو نقاش أو مراوغة نظرية .

كان وضع حياة اللفظ فى المعاجم وعلى أيدى الشراح بجانب نص بليغ موجه كفيلا بأن يثير أمام العقل اليقظ التساؤل عما ضاع وما بقى من حياة اللفظ ، وعما ضاع وما بقى من معالم إدراكه فى بيئة من البيئات .

ولايمكن للمرء بعد هذا الزمن الطويل أن ينسى دهشة الطلاب ودهشة الأساتذة أنفسهم حين يرون أمينا حريصا أمام آية أو آيتين من القرآن الكريم على أن يحشد أمام عقله وعقولنا حشدا لايكاد ينتهى من استعمالات اللفظ الواحد .
ومن المؤكد أن الذهن يمكن أن يتجاوز عن غير قليل من هذه الاستعمالات . لكن أمينا ، لأمر فى عقله ، حرص الحرص كله على أن يضع أمامنا كل تراث اللفظ ، متذكرا ومذكرا بأن هذا التراث هو الذى عرفه القدماء بجهدهم وتأملاتهم . وما عرفوه يستحق منا أن نكبره ، وأن نسائله . وهكذا كان امر تجديد العلم بالأدب على يد أمين يختلف اختلافا جذريا عما نعهده عند غيره من الأساتذة الرواد .

كان عقل أمين من هذا الوجه منفردا لايمكن أن يغضى عنه مؤرخ للنهضة الأدبية فى العالم العربى . النهضة الأدبية مولعة بالاندفاع والسرعة وإثارة الأسئلة من غير أبوابها الحقيقية ، وليست الأبواب الحقيقية إلا العلم بالألفاظ .